

الديكولونيالية وما بعد الكولونيالية

-قراءة في المصطلحات والمفاهيم-

Colonialism and Post colonialism

- Read in terms and concepts -

حمزة سعدي*

مولود بوزيد

جامعة مولود معمري تيزي وزو

جامعة مولود معمري تيزي وزو

mimou.bzd@outlook.frHamza.saidi@ummtto.dz

تاريخ الإرسال: 2024-04-25

تاريخ القبول: 2024-10-27

ملخص:

فكّ الخطاب الديكولونيالي الهيمنة الثقافية والاقتصادية، كما لعب الفكر المناهض للاستعمار دورًا مهمًا في مسألة وتحليل الأفكار الشعبية وساعد في رفع مستوى الوعي بالآثار السلبية للاستعمار. وما بعد الاستعمار هو مصطلح يشير إلى الفترة التاريخية والثقافية التي تلت ذلك الاستعمار أو مواجهة ومضادة الاستعمار. يتناول هذا المفهوم تأثير مرحلة ما بعد الاستعمار على المجتمعات المتضررة من الاستعمار، حيث تستمر التبعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للفترة الاستعمارية في التأثير على المجتمع.

ساهم العرب في دراسات ما بعد الاستعمار بشكل طفيف، ولا تربطهم بها سوى اتصالات سطحية، وهناك وجهات نظر عديدة للثقافات الهجينة، ولكن الترجمات المناهضة للاستعمار تكاد تكون معدومة، مع أنّ طروحاتها تخوض في فكرة إعادة صياغة السرديات التاريخية والثقافية، وتفكيك الأحاديث وتوسيع الفهم، ومنه سنكتشف طرق تعامل العرب مع هذه المصطلحات، وكيف تؤثر على الفكر النقدي والأدبي؟.

الكلمات المفتاحية: كولونيالية؛ ما بعد كولونيالية؛ ثقافة عربية؛ هجينة؛ فكر.

Abstract:

Decolonial discourse dismantled cultural and economic hegemony, and anti-colonial thought played an important role in questioning and analyzing ideas and helped raise awareness of the negative effects of colonialism. Postcolonialism is a term that refers to the historical period that followed or confronted colonialism. This concept addresses the impact of post-colonialism on societies affected by colonialism. Socially, culturally, economically.

*-المؤلف المراسل.

Arabs have contributed to post-colonial studies, through many perspectives on hybrid cultures, but anti-colonial translations are almost non-existent, even though their proposals delve into the idea of reformulating historical and cultural narratives. From this, we will discover the ways in which Arabs deal with these terms, and how they affect critical thought. And literary?

Keywords: Colonialism; Postcolonial; Arab culture; Hybrid; Thought.

مقدمة:

أرست الدراسات المعاصرة الرؤية النضالية التي قادها الفكر الثقافي، قصد رصد هيمنة الآخر ومحاولة التخلّص من قيوده وتكبيله، إذ أنّ التابع وفق نظريات ما بعد الكولونيالية يحاول باستماتة رفض تبعات وسيطرة الكولونيالية، التي لازالت لحدّ الآن تضطرم في أغوار الأوساط الاجتماعية والثقافية والسياسية وحتى الدينية، ومن هنا جاء هذا النضال الذي تلى هذه الكولونيالية.

برزت النظريات المعاصرة على أعتاب الصراع مع الكولونيالية، منها ما لُقّب بما بعد الكولونيالية (ما بعد الاستعمار)، ومنها ما أطلق عليه الديكلونيالية (إنهاء الاستعمار) كوقوف على سيطرة الإمبراطوريات الإسبانية، والبرتغالية، والأوروبية، والشمال أمريكية، وفق حركات تحرّرية أولها ما بعد كولونيالي قصد إبراز هذا التوجّه وإلقاء الضوء على الهيكلية الكولونيالية الاستعمارية من خلال إزالة الستار عمّا أُطلق عليه بالحدّثة، وكشف الأسس والخفايا الاستعمارية خلفها، ثم التركيز على تفكيك هذه الأيديولوجيات وفق نظريات ديكلونيالية (إنهاء الاستعمار) لتحطيم السيطرة، وبناء البعد الشعبي الثقافي الخاص بالمجتمعات ذاتها بدون خلفيات مؤثرة، ولا مستغلّة ومستبدّة.

تجلّت هذه الرؤى عند عدّة باحثين حاولوا تفكيك شيفرات المصطلحين وإبراز استكناهاتهما، وخلفياتهما الأيديولوجية والثقافية، فكيف كان هذا الرصد؟ وهل تحتاج نظريات ما بعد الكولونيالية اليوم لديكلونيالية تعيد تفكيكها، وترصيصها وتقويمها وفق رؤى الشعوب المستعمرة التي تريد الخروج من بوتقة النظرية التي وإن حاولت الخروج من ظلّ الكولونيالية لازالت تُكرّس لها بشكل أو بآخر؟.

1. في مفهوم (الكولونيالية) الإستعمارية:

يبدو أنَّ هذا المصطلح أضى ضباباً (الكولونيالية) colonialisme أو الاستعمارية، ومع تعارضها هذه الأيام مع مصطلح الإرهاب، وتسييسها من خلال حق الشعوب في تقرير المصير، والتدخلات الخارجية في الشؤون الداخلية للبلدان بحثاً عن الذهب الأسود تحت غطاء المساعدات الدولية، بات هذا المصطلح يحدث لغطاً في الأوساط الفكرية والسياسية، وفي محاولة لإعادة بناء هيكليّة للأدلجة الاستنطاقية لهذا المفهوم ظهرت وجهات نظر متباينة حوله، لتبرز أنَّ حركات ما بعد الحداثة هي نظريات ذات أبعاد ضحلة في تصوّر معارض له يقول عالم السياسة "جان فرانسوا بايارت": "أنَّ دراسات ما بعد الاستعمار التي بدأتها مجموعة ACHAC غير ضرورية ومربكة وخطيرة". وهو ينتقد التجاوزات الثقافية والحصص في "المفهوم الكارثي للهويّة" وكذلك "نزع التاريخ العرقي" الذي ينخرط فيه أيضاً السكان الأصليون للجمهورية وأتباعهم. ووفقاً للمؤلف؛ فقد أطلقوا العنان لقوتهم في كرفال أكاديمي حيث أصبحت أنظمة الهيمنة الاستعمارية مجردة، يصير بايارت على أنَّ الإمبراطوريات الاستعمارية -البريطانية والفرنسية وغيرهما- مختلفة، وهو يسلط الضوء على خصوصيات مجتمعات شمال إفريقيا وإفريقيا وآسيا، وما إلى ذلك، لكنّه مع ذلك يرى ميزة في دراسات ما بعد الاستعمار، وهي أخذ الحقيقة الاستعمارية بعين الاعتبار والقدرة على إلقاء نظرة خارجية على التاريخ الوطني¹. هذه الدراسات ضرورية ومهمّة وليست مربكة أو خطيرة، تتناول هذه الدراسات التحيزات الثقافية والقيود المفروضة على "تعريفات الهوية الكارثية" و"تدمير التاريخ العنصري" التي تؤثر أيضاً على السكان الأصليين في الجمهورية ومؤيديهم، علاوة على ذلك، هؤلاء العلماء قدّروا أهمية وجهات النظر الخارجية عند دراسة تاريخ الأُمّة، والقدرة على فهم وتحليل الحقائق التاريخية خارج الأطر الاستعمارية السائدة.

يشير الباحثون ضمناً إلى أنَّ المستعمرين المختلفين، مثل البريطانيين والفرنسيين، كانت لديهم أساليب وأهداف مختلفة، كما أنَّ الأعضاء في هذه الجمعية استخدموا تجاربهم وأسفارهم لجمع العديد من الأشياء الثقافية والتاريخية، مثل الأدوات والبطاقات

¹- Roland Pfefferkorn, Avec Abdelhafid Hammouche, (2016) Gilbert Meynier ,Colonial, postcolonial, décolonial (N° 199)2016/3, p 3.

البريدية والملصقات الاستعمارية، لتكوين مجموعة من الأدلة والمواد الداعمة لأبحاثهم، تساعد هذه الدراسات على فهم واستكشاف جوانب مختلفة من الهوية والثقافة والتاريخ خارج الأطر الاستعمارية التقليدية، وفي تعريف للجمعية «ACHAC» هي جمعية من الباحثين في الماضي الاستعماري أسست سنة 1989، وكان هدفها تسليط الضوء على الذاكرة الاستعمارية في المجتمع الفرنسي من خلال تعبئة ذخيرة متنوعة نجح ACHAC في بناء مكانته كمحور أساسي في تحديد التشخيص وفي تقديم الخدمات ... ومن أجل جمهورية متعدّدة الثقافات نقل التاريخ الاستعماري الذي يقع في قلب نهجها، وهذه الجمعية تغذي العلاقة بين الماضي الاستعماري ومعالجة مشكلة الهجرة في المجتمع»¹ لقد تمّ تسليط الضوء على العلاقة المعقّدة بين الاستعمار والقضايا الحرجة الناشئة، وخاصة في مجال علم الأعراق. اعتبرت الإثنوغرافيا الاستعمارية نفسها جزءاً من مشروع استعماري إداري ومدني، وبالتالي كان لها تأثير رقمي عندما تمّ تحدي النظام القائم في فرنسا، فالروح الاستعمارية متأصلة بعمق في الثقافة الأكاديمية، بما في ذلك العلوم الاجتماعية، على سبيل المثال، في عام 1934م كتب عالم الاجتماع جوزيف ويلبو؛ وهو طالب سابق في كلية الدراسات المتقدمة وعميد كلية الإدارة والشؤون، في ختام عمله الأكاديمي المكرّس للاستعمار في الكامرون: «مهما كانت الاحتياطات التي تمّ اتخاذها، "ولم نرغب في أن نكون عاطفيين، ظهرت أمامنا صورة: فرنسا تهبط على إفريقيا أحياناً مثل الدوّامة، لكنّها دائماً مثل البركة»²، تشير تعليقات الصور بقوة إلى هذه المدنية، صورة لزوجين إفريقيين، الرجل يرتدي بدلة وربطة عنق، والمرأة ترتدي تنورة وحذاء أبيض، مع تسمية توضيحية تقول "تزوّج من رجل متطوّر" وتظهر الصورة المجاورة رجلاً يرتدي ملابس تقليدية ويرفع رمحاً عمودياً، مع تسمية توضيحية تقول "رجل عجوز لا يهتم كثيراً بالكياسة"، فقد كان علماء الأعراق من المتابعين المتحمسين للمشروع الاستعماري على نطاق واسع « حركات ما بعد الاستعمار تشير بالضرورة إلى الحداثة/ الكولونيالية كمشكلة، لقد لاحظ علماء العصور

¹ - Laurence de CoCk, (2019) L'Achac et la transmission du passé colonial :stratégies entrepreneuriales et culturalisations de la question immigrée dans la mémoire nationale, 30 octobre 2019, journals.openedition.org/conflits/19563.

²-Wilbois J., (1934), Le Cameroun. Les indigènes. Les colons. Les missions. L'administration française, Paris, Payot, p. 251.

الوسطى على وجه الخصوص منذ فترة طويلة أن "الحدثة" هي مصطلح مجمل يتم تعريفه من خلال نقيضه، وهكذا فإن علماء العصور الوسطى وعلماء ثقافات ما قبل الحدثة بشكل عام يتقاسمون مع زملائهم في مرحلة ما بعد الاستعمار وعياً غنياً بما يسعى بالتطور المعقد لما يسعى بالشعوب البدائية¹ يُعد التفكير في الحدثة والاستعمار وعلاقتهما بالحضارات القديمة والثقافات الماضية مجالاً مثيراً للاهتمام، يجادل البعض بأن الاستعمار والحدثة كان لهما تأثيرات معقدة على التاريخ والثقافة، الأمر الذي يتطلب فهماً عميقاً للسياق التاريخي والثقافي، وفي الواقع هناك تفسيرات عديدة لمفاهيم الحدثة والاستعمار، فينظر البعض إلى الحدثة على أنها فترة من التقدم التكنولوجي والعلمي والفكري، بينما يرى البعض الآخر أنها فترة شهدت توسع الحكم الاستعماري والسيطرة على العالم، ومن المهم أن نفهم أن الحدثة والاستعمار ليسا مفهومين مستقلين تمامًا، بل هما مترابطان وتمتد آثارهما مع مرور الوقت لدى علماء العصور الوسطى والقدامى وما قبل الحدثة وجهات نظر حول هذه القضايا التي يمكن أن تثرى فهمنا للتطور التاريخي والثقافي، إن التفكير في هذه الأسئلة يتطلب نقاشاً وتحليلاً مستمراً للوصول إلى فهم أعمق لتأثير الحدثة والاستعمار وتأثيرهما على العالم والثقافات المختلفة.

خاض العرب كذلك في هذا الطرح وكيف كانت البنيوية والحدثة تكريسا للكلونيالية الجديدة، وهذا ما قال عنه الناقد عمر أزرّاج : « مصطلح "ما بعد الكولونيالية" الذي يُقحم غالباً في الكثير من الأبحاث والدراسات الغربية والعربية، حيث يختزل اعتبارياً لكي يعني المرحلة التالية على الاستعمار، علماً أن هذا المصطلح يعني أيضاً وجود ظاهرة الاستعمار الجديد، المتمثل في التبعية البنيوية لدى عدد كبير من الدول المستعمرة سابقاً للمراكز الأوروبية/ الغربية ممّا جعلها ولا يزال يجعلها غير قادرة على أن تفكّ الارتباط معها، بل فإنّه كثيراً ما يتولّد لديها الحنين إلى الاستعمار، الأمر الذي يولّد دائماً في دول الأطراف ما يسمّيه المفكر الجزائري مالك بن نبي القابلية للاستعمار، التي أصبحت شبيهة بالعود الأبدى الذي تحدّث عنه يوماً الفيلسوف الألماني

¹- Roland Pfefferkorn, Avec Abdelhafid Hammouche, p 3.

فريدريك نيتشه¹ مصطلح "ما بعد الاستعمار" يشير إلى الفترة التي تلت الحقبة الاستعمارية، لكنّه يفتح أيضاً نافذة على تبعياتها البنيوية والأثر العميق الذي خلفه الاستعمار على هذه البلدان، الاستعمار ليس مجرد حالة تاريخية من الماضي، فقد ترك آثاراً عميقة على هويّة واقتصاد وسياسة وثقافة العديد من الدول المستعمرة السابقة، هناك اعتراف متزايد بأنّ الهياكل السياسية والاقتصادية التي فرضتها القوى الاستعمارية لا تزال تؤثر على الدول المستقلّة، تعتمد العديد من هذه البلدان اقتصادياً على القوى الاستعمارية السابقة، ولا تزال العلاقات الاقتصادية والسياسية متشابكة، ممّا يجعل من الصّعب الهروب من تأثير الاستعمار.

يعدّ مفهوم الحنين للاستعمار أو ما يسمّى بالاستعمار موضوعاً مثيراً للجدل، ويشير إلى التأثير النفسي أو الاجتماعي المستمرّ للفترة الاستعمارية على ثقافات معيّنة، حيث كانت لدى بعض النّخب الحاكمة أفكار أو تفضيلات تتّفق مع وجهات النظر الاستعمارية. وهذا النوع من التفكير يمثّل استمرارية ثقافية يجب دراستها وفهمها.

يمكن القول إنّ استنطاقات هذا المصطلح تعدّت فكرة إزاحة الكولونيالية الجديدة عليه، بل تجاوزت ذلك إلى اعتبار تلك الاستعمارية المعاصرة هي نفسها الاستعمار التقليدي، فهي تستمدّ أصوله وتشدّراته، لتعيده بل لتطابقه ومن هذا يحاجج يونغ بأنّ ما بعد الكولونيالية ليست نتاج 1968م، وإنّما هي عملية غريبة للكولونيالية في الجزائر فيقول: «إذا كان ما يُدعى بما بعد البنيوية نتاج لحظة تاريخية واحدة، فإنّ هذه اللحظة ليست على الأرجح ماي/ أيار 1968م، ولكنّها حرب الاستقلال الجزائرية_ لاريب في أنّها هي

¹ - أزراج عمر، (2019)، من أين جاءت ما بعد البنيوية، تر: فادي أبو ديب، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، ص10.

نفسها عرض ومنتج الوقت عينه»¹ وينسب ذلك الحكم القيمي إلى أنَّ معظم نقّاد ما بعد الحداثة عاشوا أو تأثّروا بالثورة الجزائرية بشكل أو بآخر.

2. ما بعد الاستعمارية/ ما بعد (الكولونيالية):

نشأت نظرية ما بعد الاستعمار postcolonial من تفسير التأثيرات الثقافية والاجتماعية للفترة التي تلت الاستعمار، ويعتبر المؤرّخ بول زيليزا من النقاد والمفكرين الإفريقيين الذين درسوا ووثّقوا هذه الحركة الفكرية، يربط زيليزا ظهور نظرية ما بعد الاستعمار في الدوائر الأنجلوأمريكية بظهور فلسفات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة بقوله: «ظهرت نظرية ما بعد الكولونيالية في منتصف الثمانينات في أعقاب صعود ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة»² ومن المنظرين لهذا الطرح نجد إدوارد سعيد الناقد الأدبي الفلسطيني الأمريكي، والذي كان له تأثير كبير في تطوير ونشر الأفكار النظرية ما بعد الاستعمارية.

يركّز فكره على استكشاف العلاقة بين السلطة والمعرفة والهويّة في سياقات ما بعد الاستعمار، كما نجد المفكرين سبيفاك وهومي بابا الذين يُعدّان من الشخصيات المركزية في هذا المجال، فسبيفاك كانت ناقدة ثقافية وفيلسوفة هندية اهتمّت بتحليل الآثار الثقافية والاجتماعية للحكم الاستعماري وكيفية التعامل معها، أمّا هومي بابا هو عالم هندي يستكشف قضايا الهويّة والجنس والسلطة في سياقات ما بعد الاستعمار والعالم «فقد برزت ما بعد الكولونيالية كحركة فكرية تشتدّ وتزدهر في الأطر الفكرية لكلّ من إدوارد سعيد، وهومي بابا، وغيتاري سبيفاك، في حين أنَّ الكثير من العمل في مجال دراسات ما بعد الكولونيالية قد تناول بقصدية المسائل القاضوية المادية والاجتماعية

¹ - young Robert, post-structuralism : an introduction (1981) pp, 1-28, in young, untying the text, a reader, Routledge & kayan paul, Boston, London & Henley.

² - Paul Zeleza, (2006) 'The Troubled Encounter Between Postcolonialism and African History', Journal of the Canadian Historical Association, 17(2), p 92.

والاقتصادية، في مقابل ذلك ظهر ميل إلى عدم الخروج عن الحدود الثقافية، من جهة أخرى ولدت مدرسة الحداثة/ من أعمال علماء الاجتماع أنيبال كويجانو، وماريا لوغونيس(...) ظهرت ما بعد الكولونيالية كنتيجة لعمل علماء الشتات من الشرق الأوسط وجنوب آسيا وتشير في معظمها إلى تلك المواقع ومحاورها الإمبراطوريين (أوروبا والغرب)¹ أي أنّ هذه النظريات جاءت كردّ فعل من مثقفي الهجنة، للدول المستعمرة وهذا ما يعطي أطراً زمنية وجغرافية مختلفة الرصد للتوجّهات الديكولونيالية، وحتى القوى الإمبراطورية الاستعمارية فنظرية ما بعد الكولونيالية « تركز على الاستعمار البريطاني و الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر والذي بدأ بالخلاص المسيحي»² قام إدوارد سعيد المشهور بكتابه الاستشراق، بتحليل العملية التي تمّ من خلالها خلق صورة "الآخر" في الوعي الغربي وكيف تمّ استخدام ذلك لتبرير الاستعمار والسيطرة الثقافية كما يستشفّ التكوينات المعرفية والنظرية التي تساعد في دعم إيديولوجية الآخر مجموعة من المفاهيم والأفكار التي تشكّل صورة الغرب وفهم الآخر. وتساعد هذه التشكيلات على ترسيخ وتثبيت الصور النمطية والافتراضات حول الثقافات الأخرى وتأثيرها على الوعي الغربي، تتراوح هذه الأشكال بين استخدام اللغة والتصوير الفني والأدب إلى المفاهيم الفلسفية والنظريات الاجتماعية، يبحث إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق عن الكيفية التي استخدمت بها القوّة والمعرفة لخلق صور مشوّهة للثقافات الشرقية لتبرير السيطرة الاستعمارية والتفوق الثقافي.

عبّرت سبيفاك في كتابها (هل يستطيع التابع أن يتكلّم) على أنّ الاستعمار لم يكن عملية تقسيم العالم وفقاً للمنطق العنصري فحسب، بل شمل أيضاً بناء مفاهيم محدّدة للجنس أثّرت على النظرية والسياسة. إحدى القضايا الرئيسية الناشئة عن هذه العملية

¹ - Gurminder K. Bhambra, (2014) Postcolonial and Decolonial Dialogues <https://www.researchgate.net/publication/273959509>.

² - Ndumiso ncube, (2020) (Post-)Colonialism and (De-)Coloniality: The Delineations, Contrasts and Intersections – A Synopsis. <https://www.researchgate.net/publication/344397647> .

هي "إخفاء المرأة المستعمرة من الناحية النظرية والسياسة خلال الحقبة الاستعمارية، تجاهل التركيز النظري والسياسي على الذكورة والعنصرية إلى حدٍ كبير تجارب النساء المستعمرات، لقد تجاهلت النظرية السائدة تجاربهم وأصواتهم، كما تجاهلت النظرية السائدة الصعوبات والتحديات التي واجهوها نتيجة للحكم الاستعماري، ويعكس هذا الإخفاء الفشل في الاعتراف بنساء المستعمرات/الأقليات ككيانات منفصلة ذات تجارب فريدة ومتعددة الأبعاد. ويتمُّ التغاضي عن تنوع تجاربهم وتفاعلاتهم مع السلطة والهويات الثقافية. وتعيش نساء المستعمرات/الأقليات تحت ضغوط الاستعمار والهويات المزدوجة أو المتعددة، لكن نادراً ما يتمُّ تمثيل هذه التجارب أو أخذها بعين الاعتبار في السياقات النظرية أو السياسية « فضمن خط سير الرحلة الممحو أثره لموضوع التابع يزداد محو مسار الاختلاف الجنسي بشكل مضاعف، ويصبح التساؤل قائماً لا عن مشاركة الإناث في التمرد، أو القواعد الأساسية للانقسام الجنسي في العمل، ففي كليهما يوجد (دليل) وإنّما التساؤل بالأحرى، كهدف من التأريخ الاستعماري وكموضوع للتمرد، فالبناء الإيديولوجي للجندري حافظ على الفحل المهيمن، وإذا كان التابع في سياق الإنتاج الاستعماري لا يملك تاريخاً ولا يمكنه الكلام، فإنَّ التابع المؤنث سيكون في الظلِّ بشكل أعمق»¹ لقد تمَّ استخدام التبعية الجنسية كأداة للسيطرة والتعالي، فهي تركز للذكورة المهيمنة، وتقلِّص دور المرأة.

ساهمت القوى الاستعمارية بشكل أو بآخر في التحديد الماهوي للوعي الجنساني من خلال دينامية استعلائية ذكورية، ألقت ظلالها كتابع بارز على الأرضية النسوية المستعمرة، فأضحت هذه النسوية كنوع من التبعية من الدرجة الثانية. تعكس التحديات المفاهيمية المحيطة بمرحلة ما بعد الاستعمار التفاعل المعقّد بين الأخلاق الاجتماعية وتكوين الهوية الفردية، فضلاً عن عدم المساواة المعاصرة وتاريخها

¹ - غياتري سبيفاك، (2020)، هل يستطيع التابع أن يتكلم، تر خالد حافظي، صفحة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، ص 86.

المعقّد. من خلال مقالاته وأعماله يسلّط هومي بابا الضوء على هذه الديناميكيات المعقّدة ويفحص كيفية تفاعلها وتأثيرها على بناء الهويات الشخصية والاجتماعية. من خلال الثقافة يشرح بابا كيف تؤثر هذه العلاقات على السلطة والهياكل الاجتماعية، وكيف يمكن التعبير عنها وتفسيرها بشكل أفضل من خلال الكلمات والمفاهيم فهو يرى أنّه علينا ألاّ نغيّر سرد تاريخنا فحسب، بل يجب أن نغيّر إحساسنا بما يعنيه العيش.

تدور مقالات بابا حول مجموعة متنوعة من المواضيع، ولكنها تركّز في المقام الأوّل على توضيح التفاعل بين الأخلاق الاجتماعية والتشكيل الذاتي، والمظاهر الحالية لعدم المساواة، والتاريخ المعقّد لهذه الظواهر. يفكر بابا أيضًا في كيفية ارتباط هذه الجوانب والعلاقات ببعضها البعض، وكيف يمكن نقل هذه التفاعلات المعقّدة بشكل أفضل من خلال استخدام اللغة والمفاهيم.

ركّز الباحث عمر أزراج في بحثه النقدي المابعد حدائي على كلّ من إدوارد سعيد، غايتري سبيفاكوفرانز فانون مبرزاً المرجعيات النظرية للنقاد إدوارد سعيد وتأثره بفيكو وأنطونيو غرامشي، والافتراضات المستقاة كذلك من فوكو بقوله: «لكي يعرّي إدوارد سعيد إخفاقات الحداثة الغربية جرّاء تحوّلها إلى ظاهرة استعمارية في المعمورة، قام باستثمار نظرية التاريخ والجغرافيا كمكوّنين للثقافة وكمؤسّسين لهوية الشعوب عند جامبا تيسا فيكو، ونظرية الخطاب ومفهوم المعرفة/ القوة عند ميشال فوكو فضلاً عن دور بعد المكان/ الفضاء في بناء الذوات وتاريخها، ونظرية الهيمنة وتشكّل المثقّفين لأنطونيو غرامشي إلى جانب العلاقة المتبادلة بين الجغرافية وبين التمثيل والهوية الاجتماعية والطبقية، وكما وظّف النظرية الثقافية المادية عند رايموند ويليامز ونظرية المقاومة الثقافية ونظرية العنف عند فرانز فانون»¹ ليعرّج قائلاً: أنّه لا يستخدم هذه النظريات بشكل واضح وإنّما يعيد صياغتها وفق سيروراته الفكرية والنقدية.

¹ - أزراج عمر، (2023) في النقد ما بعد الكولونيالي: مقارنة المصطلح والنظرية، اسكرايب للنشر والتوزيع، مصر، دط، ص 115.

يذهب أزراج عمر إلى أنَّ سبيفاك فكَّكت الخطاب بشكل مزدوج، وفق السمات النظرية والمنهج وكذا المعالم المسيرة الفكرية فنجدته يقول: «هناك ملاحظة أخرى جديرة بإبراز المنهج الذي تعمل به سبيفاك في معلمها الفكري والذي يمكن لنا تلخيصه بسرعة بأنَّه مزيج من الماركسية في صيغتها النقدية وما بعد البنيوية وتفكيك جاك دريدا وأحيانا التحليل النفسي، وفي هذا السياق ينبغي لنا أن نحدّد المحاور الرئيسية التي يتركز عليها فكرها النقدي التي نراها في جذرين هما:

1- النقد النسوي

- 2- النقد الكولونيالي وما بعد الكولونيالي «¹ ليتوغّل في استشفاف الخطوط العريضة للنظريات التفكيكية التي تشرّبت بها سبيفاك، لتبرز الوعي النسوي وفق منظومة بعيدة المدى عمّا يورثه الاستعمار من تبعية للبنى الثقافية و الفكرية والتعليمية وهلمّ جرّاً... يذهب نقد سبيفاك وفق منحنيين افتراضيين ألا وهما؛ الثقافة الذكورية المنساقاة للتكريس الفكري الغربي، وكذا بقايا الاستعمارية كتمهيش المرأة في دول العلم الثالث وميكانيزماته الثقافية والسياسية والتربوية.
3. ديكلونيالية وما بعد الكولونيالية:

حاولت الحركات منذ ظهور الأنظمة الاستبدادية التخلّص من قيود المستعمر بطرق سياسية وعسكرية وفكرية، لترسم معالم الكفاح وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، ومن خلال ذلك برزت الديكلونيالية decoloniale أو إنهاء الاستعمار «انبتت هذه البوادر الديكلونيالية أساساً على استكناه الاحتلال البرتغالي والإسباني من بدايات القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر وقد ركّز الباحثون المؤسّسون لمسألة الديكلونيالية على آراء بارتولومي ديلاس كاساس bartolome de las casas جينيس دي سيولفيدا Gines de sepulveda في جدالات "بلد الوليد" valladolide الشهيرة في خمسينيات القرن السادس عشر التي تحيل على أن الاستعمار جاء بغرض الحضارة ثم عادت حركة الديكلونيالية

¹ - المرجع نفسه، ص 104.

بشكل أقوى في التسعينيات في أمريكا الجنوبية بعد مقال كويجانو 2007 والذي كان عنوانه (الكولونيالية والحداثة / العقلانية) والذي نشر في أواخر الثمانينيات¹ وكثيراً ما يتداخل مصطلح ما بعد الكولونيالية مع الديكولونيالية في حين أنّ هذا الأخير أكثر غوراً وولوجاً تاريخياً وأكثر قدماً، إذ أنّه «أرسى معالمه بالتوغلات الأوروبية القديمة على الأراضي التي أضحت تسمّى بالأمريكتين من القرن الخامس عشر وصعوداً.

كانت مناظرات الديكولونيالية وما بعد الكولونيالية في تحدٍّ مع التقاليد التاريخية والعزلة الثقافية التي رسمت تصوّراتها أوروبا وقد برز ذلك بشكل خاص في سياق الحجج الأوروبية الداخلية للحداثة في ظلّ الضرورة النظرية لظهور العالم الحديث، وفق النشاط الأوسع للاستعمار وإمبراطورية والاستعباد² إنّ الإشارة إلى إنهاء الاستعماري يوجي إلى إعادة هيكلة في مختلف المنظومات التعليمية والفلسفية والثقافية والفكرية والأدبية، وقد يكون التركيز على المنظومة العلميّة والثقافيّة بشكل أكبر لإعادة بناء نظام توعوي جمعي، يندرج ضمن البناء الأوّلي للجيل الناشئ وفق منطق يمسح التبعية للآخر ويُبرز الاستقلالية أكثر ممّا يكرّس للفكر الذي يُحيل إلى اليأس وتصغير الذات، إلّا أنّ هذا لا يمنع من إبراز بعض الأمور التي كان الاستعمار سبباً فيها، كالتخلّف والجهل لكي لا يخلق هذا نوعاً من النسيان والانصياع والتماهي مع الآخر. لقد أورد المفكر ندلوفو جاتشيني أسماء مجموعة من المفكرين البارزين في مجال إنهاء الاستعمار من هؤلاء «محمود ممداني، نفوجي وا ثيونغو، أنريكي دوسيل، سيلفيا ويتنر، رامون جرو سفوغيل، نيلسون مالدونادو توريس، أنيبال كويجانو، كاثرين ويلش، والتر هيكتولو، وبرنارد ماجوباني، ويضيف بهامبيرا إلى هذه القائمة فازكيز وماريا لوجونيس وغلوريا أنزالدو»³ ساهم هؤلاء المفكرون وغيرهم بشكل

¹ - Anselm Jimoh , (2020) See discussions, stats, and author profiles for this publication at:

<https://www.researchgate.net/publication/344397647>, September.p1-8.

² - Anselm Jimoh , (2020) See discussions, stats, and author profiles for this publication, p 1-8.

³ - ibid, p 1-8.

أوبآخر بتعميم الركائز الديكلونيالية والحجاجة، وفق التأطير الثقافي فكان ما يجمع بين مختلف هذه الأعمال هو التركيز على أنَّ مصطلح الديكلونيالية يحيل بشكل صارم إلى تشدُّر التوليد المعرفي قصد تسليط الضوء على مختلف الأعراق والأجناس البشرية، فمن خلال النظرة المعرفية الجامعة يشكِّك الباحثون اليوم في العصور الوسطى وولادة القارة الأمريكية، وحتى التقسيم السياسي والجغرافي.

اجتهد أزراج عمر في طرح مشكل الديكلونيالية في المنظومات الثقافية والفكرية والإبداعية العربية، كما فعل الغرب والأجانب، فقد حاور النظريات الغربية والعربية، واستنتج الأسس النظرية التي تثبتق حولها مناهج ما بعد الحداثة، والكيفيات التي تسير عليها هذه المنظومات على الاعتبار الكولونيالية التي تندرج وفق الحداثة الاستعمارية، وبذلك خرج بإضاءات ينتسق وفقها الفكر الديكلونيالي الذي يرى فيه تأسيساً وبناءً على مناهج هي أصول وبناءات استعمارية، أي أنَّ اجتهاداته تندرج وفق إعادة بناء تحويرية لما جاء به فكر ما بعد الكولونيالية وقد برز ذلك من محاججته التي ناقش فيها آراء إدوارد سعيد، سبيفاك، وفرانز فانون والتي يرى فيها بشكل أو بآخر أنَّ هذه الآراء هي استكناه للحداثة «لقد لفت بعض المنظرين الجدد وقبلهم رؤاد ما بعد البنيوية من أمثال رولان بارت، وجاك دريدا، وميشال فوكو وآخرون، لفتوا انتباهنا إلى بعض الأسس المشتركة بين ما بعد البنيوية والبنيوية»¹ يشير بعض المنظرين الجدد ورؤاد ما بعد البنيوية بشأن أوجه التشابه أو الأرضية المشتركة بين المدارس البنيوية وما بعد البنيوية في هذا الصدد، فالمنهج البنيوي يركز على فحص بنيات اللغة وأنظمتها أو نصوصها، مع التركيز على العلاقة بين الأجزاء والكل. ويعتبر رولان بارت وجاك دريدا من أبرز المفكرين في هذا المجال، أمَّا ما بعد البنيوية هي اتجاه فكري بعد البنيوية وتعتبر تطوُّراً للبنيوية، ويشير إلى تفكيك واستكشاف الهياكل والقوانين القائمة، وهو النهج الذي يشمل مفكرين مثل ميشيل فوكو.

¹ - أزراج عمر، في النقد ما بعد الكولونيالي: مقارنة المصطلح والنظرية، اسكرايب للنشر والتوزيع، مصر، دط، 2023، ص115.

يتمُّ التأكيد على أنَّ المنظَّرين الجدد في مجال ما بعد البنيوية يجدون أوجه تشابه أو قواسم مشتركة مع النهج البنيوي، وقد يكون هذا مرتبطاً بالتركيز على اللغة أو البنية أو العلاقات بين العناصر، ولكن يمكن القيام به بشكل مختلف أو تطويره في سياق ما بعد البنيوي لنجد أزراج عمريقول أيضاً: «سوف أفحص كلَّ فرضية هادفاً إلى فتح الإمكانية لمقاربة بديلة تأخذ بعين الاعتبار لحظات تاريخية مختلفة بما فيها صلات الكولونيالية بمسائل القوَّة وما بعد الكولونيالية بمسائل القوَّة والنفوذ، وسأقتفي أثر أدوارها في تكوين ما بعد البنيوية المدعوَّة بالفرنسية»، ويسير وفق هذا التأطير رسم معالم التفكيك الكولونيالي، من خلال السيرورات الثقافية والفكرية والاجتماعية، والتي يبرز وفقها تبعات الكولونيالية في المناهج العلمية والفلسفية والفكرية والأدبية، على اعتبار المثقَّف الأداة البارزة في البناء المضادَّ للفكر الديكلونيالي.

حاول العديد من المفكرين الترسيم لهذا الفكر الديكلونيالي لرفض التبعية التي تستكنه الوعي الأدبي لمثقَّفِي العالم الثالث، هؤلاء الذين تشرَّبوا ويلات الاستعمار، لمتزج الهجنة مع الروح التحررية وفق تمرُّد الطيور الجريئة التي ذاعت ذرعاً بكونها تحمل العصا من الوسط، فلا هي منظور كلونيالي خالص ولا بناء ما بعد كلونيالي معاصر لا حدود وتأطيرات له، كما أنَّ أزراج عمريدعو إلى الوقوف النقدي العربي، الذي يكون ذو خصوصية بنائية مزاحية عن كلِّ الطلائع الغربية التي تنتج التبعية بقوله: «وفي هذا الخصوص بالذات، يبدو أنَّه حان الأوان أن تكون لنا مشاركتنا الفاعلة من المحيط إلى الخليج في إنشاء مصطلحات ذات خصوصية لهذا الحقل المعرفي بالإضافة إلى ضرورة دعم الجهود النظرية، والتطبيقية الموضوعية والمساهمة بالتزامن في تغيير المعمار النظري الراهن للدراسات ما بعد الكولونيالية، ومعطيات تطبيقاته بواسطة تنقية المتن المتمركز غربياً واستعمارياً»¹ في ضوء التطوُّرات الثقافية والفكرية الأخيرة، هناك اهتمام متزايد بضرورة إعادة تقييم المفاهيم والنظريات في مجال دراسات ما بعد الاستعمار، ويتطلَّب

¹ - المرجع نفسه، ص 39

هذا التحول المفاهيمي المشاركة النشطة من مختلف البلدان في جميع أنحاء العالم، لأنه يؤكد على أهمية خلق مصطلحات محدّدة تعكس التنوع الثقافي والتاريخي لمختلف المناطق، ويجب أيضاً دعم الجهود النظرية والتطبيقية لشرح وتحليل التحوّلات الاجتماعية والثقافية بشكل أكثر فعالية. وفي سياق معين، يسلط الضوء على الحاجة الملحة لتغيير الإطار النظري لدراسات ما بعد الاستعمار وتنقية أنطولوجيا الاستعمار المتمركزة حول الغرب، ويهدف هذا التحول إلى تحقيق توازن أكثر تمثيلاً وتنوعاً بين الفهم والتفسير، ممّا يجعل دراسات ما بعد الاستعمار أداة فعّالة لفهم التحديات والتفاعلات الثقافية في عصرنا.

رُكز النقاد وفق هذه الملاحظات على التأسيس للديكلونيالية من خلال بُعد الترجمة كثقافة مؤثرة تعتمد كلياً على الطرف الآخر، فكان الناقد جلال الحكماوي من الدعاة إلى هذا بقوله: «الهيمنة التي نعيشها اليوم ليست ثقافية فحسب، بل هي اقتصادية وسياسية وفكرية، والمقاومة تروم تفكيك النسيان الذي يمسّ قضايا الوطنية والقومية وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وهذا النسيان الذي لا يمكن أن يقاوم إلا بمشروع فكري واضح، يتعلّق بما نترجمه اليوم من الغرب، والمسألة موكولة للمترجمين أنفسهم الذين عليهم أن يتوجّهوا في أعمالهم إلى الفكر النقدي الغربي الذي يفكّك الصورة الخادعة التي تروّجها الروايات العالمية الشهيرة التي تملأ معارض كتبنا من المغرب إلى الخليج والانفتاح على الجنوب العالمي إفريقيا، آسيا، أمريكا اللاتينية»¹، ويؤكد الناقد في مراجعته على أهمية إرساء مبدأ إنهاء الاستعمار، مع التركيز على الترجمة باعتبارها بُعداً ثقافياً مؤثراً، ويرى النقد الثقافي أنّ هذا الأساس يعتمد كلياً على الآخر، كما يتجلّى ذلك في رؤيته للهيمنة الحالية باعتبارها ليست مجرد ظاهرة ثقافية، بل ظاهرة اقتصادية وسياسية وفكرية أيضاً.

وتتجلّى رؤية الناقد في دعوته إلى مشروع فكري صريح يقوم على المنهج التحرري من الاستعمار، ورأيه أنّ هدف حركة المقاومة هو إزالة النسيان الذي يؤثّر على القضايا الوطنية

¹- جلال حكماوي، الترجمة كمقاومة، <http://www.alaraby.co.uk/culture/>

والقومية، وخاصة القضية الفلسطينية، ويعزو النسيان إلى الهيمنة الثقافية والفكرية التي يجب تحديها من خلال الترجمة والفهم الأوسع لمشاريع الترجمة.

تؤكد هذه الملاحظات على دور المترجم في توجيه الاهتمام إلى الفكر النقدي الغربي، مما يساعد على تبديد الصور الخادعة المتداولة في الأعمال الأدبية العالمية، والتشديد على أهمية فتح آفاق الترجمة، بما في ذلك التفاعل مع الفكر النقدي والثقافي الغربي، من أجل تحقيق فهم أعمق وتنوع للتفاعلات الفكرية والثقافية من المغرب إلى الخليج، ومن الجنوب العالمي إلى إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

خاتمة:

حفّز التأثير المتزايد لفكر إنهاء الاستعمار في أمريكا اللاتينية العديد من العلماء على استنطاقات لإنهاء الاستعمار، وذلك بدعوى الابتعاد عن المركزية الغربية، وتفكيك الخطابات المنبئية على الحداثة جميعها، حيث أنهم يركزون على أنّ الحداثة هي الأداة الأولى التي خلقت هذا التشوّط، والتبعية، والعالم الثالث جغرافيا، وسياسيا وثقافيا، ومن خلال هذا نعرف أنّ تشكّلات هذه الدراسات كانت ولا تزال بشكل أو بآخر فكرة تكرّس للتبعية من خلال تصوّرات مجرّدة، تبوتقت في اللاوعي الجمعي، وأبت أن تفارق المفكر والمثقف المعاصر الذي تشرب من المنابع الغربية، والذي تأصل تفكيره وفق الهجنة الثقافية.

المصادر والمراجع باللغة العربية :

1. أزراج عمر، (2023) في النقد ما بعد الكولونيالي: مقارنة المصطلح والنظرية، اسكرايب للنشر والتوزيع، مصر، دط.
2. أزراج عمر، (2019)، من أين جاءت ما بعد البنيوية، تر: فادي أبوديب، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، ط1.
3. جلال حكماوي، الترجمة كمقاومة، <http://www.alaraby.co.uk/culture/>
4. غياتري سبيفاك، (2020)، هل يستطيع التابع أن يتكلم، تر خالد حافظي، صفحة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1.
قائمة المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:
5. Anselm Jimoh , (2020) See discussions, stats, and author profiles for this publication at: <https://www.researchgate.net/publication/344397647>, September.
6. Gurminder K. Bhambra, (2014) Postcolonial and Decolonial Dialogues <https://www.researchgate.net/publication/273959509>.
7. Laurence de CoCk, (2019) L'Achac et la transmission du passé colonial : stratégies entrepreneuriales et culturalisations de la question immigrée dans la mémoire nationale, 30 octobre 2019, journals.openedition.org/conflits/19563.
8. Ndumiso ncube, (2020) (Post-)Colonialism and (De-)Coloniality: The Delineations, Contrasts and Intersections – A Synopsis. <https://www.researchgate.net/publication/344397647>.
9. Paul Zeleza, (2006) 'The Troubled Encounter Between Postcolonialism and African History', Journal of the Canadian Historical Association, 17(2).
10. Roland Pfefferkorn, Avec Abdelhafid Hammouche, (2016) Gilbert Meynier, Colonial, postcolonial, décolonial (N° 199) 2016/3.
11. Wilbois J., (1934), Le Cameroun. Les indigènes. Les colons. Les missions. L'administration française, Paris, Payot.
12. young Robert, post-structuralism : an introduction (1981) pp, 1-28, in young, untying the text, a reader, Routledge & kavan paul, Boston, London & Henley.

